

السلام في الكتاب المقدس^(*)

الأب الدكتور. جورج مستوح

أستاذ في مركز الدراسات

المسيحية الإسلامية

جامعة البلمند - طرابلس (لبنان)

الله، في كثير من العبارات في الكتاب المقدس بعهديه، هو نفسه «سلام» (قضاة 6، 24)، أو إله السلام، وهو وحده القادر على صنع ملء السلام. في العهد القديم، ثمة ترابط دائم بين إعلان سيادة الله وتحقيق السلام على الأرض. الله الملك الآتي يهب السلام لشعبه : «ما أجمل على الجبال قدمي المبشر الخير بالسلام المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون : قد ملك إلهك» (أشعيا 52، 7). هذا السلام ثمنه الفداء الذي يتمه السيد المسيح، والذي يشير إليه أشعيا بلقب «عبد الرب» طعن بسبب معاصينا وسحق بسبب اثمنا نزل به العقاب من أجل سلامنا وبجرحه شُفينا» (53، 5). مات المسيح، الذي هو أيضا «سلامنا» أفسس 2، 14)، وقام من أجل أن ينال جميع الناس السلام.

السلام في العهد القديم :

لا بدّ، أولاً، من التعريف بمعنى لفظ «سلام» وجذره في البيئة السامية. إنّ اللفظ العبري «شالوم»⁽¹⁾ يشتق من مصدر يدلّ، تبعا لمواطن

(*) بحث قدّم في ندوة : «الاديان والمذاهب وثقافة السلم، التي نظّمها المعهد الأعلى لاصول الدين أيام 16 - 17 - 18 أفريل 2001.

(1) انظر معجم اللاهوت الكتابي، لفظ سلام، دار المشرق، بيروت، 1986.

استعماله، على وجود الشيء في وضعه السليم، الكامل، أو يشير إلى الفعل الذي به تعاد الأشياء إلى وضعها القديم السليم. لذلك، فليس السلام في الكتاب المقدس هو مجرد «الميثاق» الذي يتيح حياة هادئة، ولا «زمن الصلح» مقابل «زمن الحرب»، وإنما السلام يدلّ على هناء الحياة اليومية، ووضع الإنسان الذي يعيش في ونام مع الطبيعة، مع نفسه، ومع الله. وبصورة واقعية، هو بركة، وراحة، ومجد، وغنى، وخلاص، وحياة، وأمان. والسلام أيضا هو ثقة متبادلة مثبتة غالبا بعهد، فالله يأمر موسى قائلا : «هأنذا معطيه عهد سلامي» (العدد 25، 12)، أو هو ميثاق حسن جوار، فيشوع بن نون «سالمهم سكان جبعون وقطع لهم عهدا على الإبقاء عليهم» (يشوع 9، 15). كلّ هذه القيم والصفات المادية والروحية المرتبطة بلفظ «السلام»، متضمنة في التحية والدعاء كما في عبارة «السلام عليكم» العربية. وتقدّم «ذبائح سلام» للتعبير عن الشركة بين الله والإنسان (الأخبار 1:3).

إنّ السلام في العهد القديم هو أيضا الخير بالتعارض مع ما هو شرّ، كما ورد في المزمور : «جانب الشرّ واصنع الخيرَ وابتغ السلام واسع إليه» (34، 15)، ويؤكد النبي أشعيا هذا المعنى حين يقول : «لا سلام للأشرار، يقول الربّ» (أشعيا 48، 22). فالسلام، إذا، هو مجموعة الخيرات التي يمنحها الله للرجل البارّ والصالح : «الوضعاء يرثون الأرض ويتلذذون بكثرة السلام» (المزمور 37، 11).. وفي هذا الإطار، يعدّد كاتب سفر الأخبار على لسان الله النعم التي يفيضها الله على السائرين بحسب فرائضه وحافظي وصاياه والعاملين بموجبها، فيقول : «إن سرتم على فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتُم بها، أنزلتُ أمطاركم في أوانها وأخرجت الأرض غلالها وأخرج شجر الحقل ثمره، وأكلتم طعامكم شبعاً وأقمتم في أرضكم آمنين، وألقيت في الأرض السلام، فترقدون وليس

مزعج، وأزلتُ الوحوش الضارية من الأرض فلا يمر سيف في أرضكم، وتطاردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف، فيطارده الخمسة منكم مائة ويطارده المائة منكم ربوةً ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف، وألتفتُ إليكم وأنميكم وأكثركم وأثبت عهدي معكم، وأجعل مسكني في وسطكم وأكون لكم إلهًا وتكونون لي شعبًا : أنا الربّ إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر لكيلا تكونوا عبيدا لهم» (26، 1 - 13).

يحصل الإنسان على السلام بالصلاة المفعمة ثقة، ولكن أيضا بممارسة أعمال البرّ، لأنّ عليه، بحسب تدبير الله أن يشارك في تأسيس السلام على الأرض. لقد حاول الملوك أن يحققوا السلام، لا كشر للبرّ الإلهي، بل على أساس أحلاف سياسية تخلو من الإيمان. ووجد هؤلاء الملك في بعض الأنبياء الكذبة سنداً لهم. ويفضحهم النبي إرمياء حين ينقل عن الله قوله : إنّ الأنبياء (الذين يتنبأون بالسلام «السياسي» الخادع) يتنبأون باسمي كذبا، وأنا لم أرسلهم ولم آمرهم ولم أكلّمهم» (إرمياء 14، 14). إرمياء نفسه يوجّه لهؤلاء التهمة : «ويداؤون كسر شعبي باستخفاف قائلين «سلام سلام» ولا سلام» (6014). إنّ الأنبياء الكذبة يبشّرون بالسلام باستخفاف وسطحية. فالسلام يعبر، ينظر إرمياء، لا عن غياب الخطر فقط، بل عن مثال أعلى للسعادة في الازدهار الفردي والجماعي، وفي العلاقة الصحيحة مع الله، التي تظهر ثمارها في العلاقات الاجتماعية العادلة، فهبة السلام تتطلب هجر الخطيئة. ها هو المثال الأعلى الذي سيحقّقه السلام المسيحاني (عندما يأتي المسيح)، وهو ما عبّر عنه أشعيا حين قال : «فيسكن الذئب مع الحمل، ويربض النمر مع الجدي، ويعلف العجل والشبل معا، وصبي يسوقهما. ترعى البقرة والدبّ معا، ويربض أولادهما معا، والأسد يأكل التبن كالثور. ويلعب الرضيع على حجر الأفعى، ويضع القطيم يده في جحر الأرقم. لا يسيئون ولا

يفسدون في كلّ جبل قدسي أنّ الأرض تمتلئ من معرفة الربّ» (11، 6 - 9).

إنّ هذا الجدل حول السلام كامن في الرسالة النبوية برمتها. ويرتبط السلام، عند الأنبياء بالأيام الأخيرة، فيعلن أشعيا مجيئ المسيح «رئيس السلام الذي سيهب سلاما لا انقضاء له» (9، 5 - 6) وزكريّا النبيّ (وهو غير أبي يوحنا المعمدان أو يحيى القرآنيّ) يبشّر بالمسيح الذي «يكلم الأمم بالسلام» (زكريّا 9، 10). أمّا ميخا النبي فيقول في نبوءته عن المسيح إنّ «يكون سلاما» (ميخا 5.5). وعبد الربّ المتألّم، الذي يتحدّث عنه أشعيا النبيّ كصورة عن المسيح، هو الذي سيحقّق بذبيحته السلام : «طعن بسبب معاصينا وسُحق بسبب آثامنا، نزل به العقاب من أجل سلامنا وبجرحه شفيّنا» (أشعيا 53، 5). حينئذ يكون «السلام للبعيد والقريب، قال الربّ، وأشفيّه» (أشعيا 57، 19)، ويتميّز ولاية الشعب بالسلام والعدل (أشعيا 60، 17). في هذا السياق الأخرويّ والثواب، يورد كاتب سفر الحكمة : «أمّا نفوس الصّديقين فهي بيد الله فهي بيد الله فلا يمسه أيّ عذاب. في أعين الأغبياء يبدو أنّهم ماتوا، وحسب ذهابهم مصيبة، ورحيلهم عتّا كارثة. أمّا هم ففي سلام» (الحكمة 3، 1 - 3).

السلام في العهد الجديد :

يرسم لوقا في إنجيله المسيح ملكا مسالما. فلدى ولادته يعلن الملائكة السلام في الأرض بالتسبيح : «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام للناس الذين في السرّة» (لوقا 2، 14)، وهذا التسبيح عينه يرّدّه تلاميذه عند دخوله إلى أورشليم : «مبارك الملك الاتي باسم الربّ، السّلام في السماء والمجد في العلى» (لوقا 19، 38)، ترفضه المدينة المقدّسة. وفي فم المسيح يتحوّل السلام الى إعلان نجاة، فبكلمة السلام يشفي المرأة النازفة الدم : «فقال (المسيح) لها : «إيمانك أبرأك فاذهبي بسلام» (لوقا 8، 47)،

وبكلمة السلام يغفر خطايا المرأة الخاطئة التائبة «فقال للمرأة إيمانك خلّصك فاذهبي بسلام» (لوقا 7، 50). من هنا، يكون السلام الذي يهبه المسيح والانتصار على المرض والخطيئة، وهو نتيجة الإيمان في الآن ذاته.

تحتوي بداية الموعظة على الجبل ذكرا لأمرين اعتبرهما السيّد المسيح في أساس تعاليمه. وما مهمته في العالم إلّا العمل على إقامتها، وهما : البرّ (أو العدل) والسلام. تقول التطويبة السابعة : «طوبى للسّاعين إلى السلام فإنّهم أبناء الله يدعون» (متّى 9، 5). وعلى الرغم من أنّه لا يستطيع أحد أن يدّعي لنفسه القدرة على تحقيق ملء السلام على غرار السيّد المسيح، ولكنّ المسيح ينتظر من المؤمنين السعي ولو قليلا في طريق الاقتداء به لتحقيق السلام. والواقع أنّ ثمّ إجماعا في المسيحيّة على القول بأنّ المسيحيّين يهتدون في سعيهم إلى السلام بالمبادئ الآتية ⁽²⁾ :

أولا : إنّ المجيء الثاني للسيّد المسيح وإعلان ربوبيّته على كلّ المسكونة، ووحدهما، سيقيمان السلام النهائيّ بين البشر.

ثانيا : إنّ الكنيسة وحدها، قبل المجيء الثاني للمسيح، هي على الأرض مركز السلام بين الشعوب ونبوعه، لأنها هي جسد المسيح ومسكن الروح القدس.

ثالثا : إنّ البرّ وحده أمام الله وفيما بين البشر، هو وحده أساس السلام، لأنّه هو الذي يبيد الخطيئة ينبوع كلّ انقسام.

من هنا، لا يمكن فهم الأمثلة التي أعطاهما السيّد المسيح في موعظته على الجبل وكأنّها غير قابلة للتطبيق. كمثّل قوله : «من لطمك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر» (متّى 5، 39). يُعتبر اللطم على الخد الأيمن إهانة

(2) المرجع ذاته.

كبيرة، ويسوع يقول ما معناه أقبل الإهانة، لا تقابل العنف بعنف مضاد. ولكن كيف للمؤمن أن يواجه العنف؟ ينبغي مواجهة الخصم وتعدّيه عليه بالصلاح والسعي إلى إيقاف شرّه بالخير، وفي هذا يقول الرسول بولس: «لا تدع الشرّ يغلبك، بل أغلب الشرّ بالخير» (رومية 12، 21). المطلوب من المسيحيّ، بحسب التراث الكنسيّ، ليس فقط أن يقول: لا للعنف أو لا للشرّ، ولكن عليه أن يقول نعم للسلام. والجدير بالذكر أن اللفظ المناقض للفظ «السلام» ليس فقط «الحرب»، بل «الشرّ» و«الفساد» أيضا.

هنا نشير إلى نقطة هامّة، وهي أنّ العدل الاجتماعيّ، بحسب النظرة المسيحيّة إلى السلام، عنصر من عناصر السلام. يقول النبيّ داود في سفر المزامير: «الرحمة والحقّ تلاقيا، البرّ والسلام تعانقا» (85، 11). وفي مكان آخر من سفر المزامير ينشد المرتنم: «فيقضي بالبرّ لشعبك وبالإنصاف لبائسك تثمر الجبال للشعب سلاما والتلال برّا. لأنّه ينقذ المسكين المستغيث والبائس الذي لا ناصر له» (72، 2 - 3 و12). هذا الكلام لم يتحقّق في زمن أيّ من ملوك أسرة داود، ولكنّه يتحقّق في الملكوت الذي افتتحه السيّد المسيح بموته وقيامه. والتحدّي الذي يواجهه المسيحيّين هو هل يستطيعون جعل السلام في العالم حاضرا قبل إعلان هذا الملكوت في اليوم الأخير؟

ثمّة من يستند في تبريره للحرب إلى قول المسيح في انجيل متى: «لا تظنّوا أنّي جئت لألقي على الأرض السلام؛ لا، ما جئت لألقي السلام بل السيف» (10، 24). لا بدّ من قراءة المقطع كلّه حتّى نفهم المقصود من تفوّه المسيح بهذا القول، إذ يرد في الآية الأخيرة منه قوله «من حفظ حياته يفقدها ومن فقد حياته في سبيلي يحفظها» (الآية 39). يظهر من السياق أنّه استعمال لفظ «السيف» في هذه الآية إنّما هو

استعمال مجازي، بمعنى أنّ السيف صورة عن القياس الذي على أساسه يفرّق الإنسان ما بين الخير والشرّ. فالمسيح يضع الإنسان أمام خيارين : إمّا أن يبقى مقيّداً بأبناء عائلته ومصالح قومه أو أن يتبع المسيح ويحمل صليبه. والصليب هو تماماً نقيض السف. لا يستطيع الإنسان أن يكون سيّافاً ومصلوباً في آن. والإنجيل يرينا أنّ السيف يحمله مضطهدو يسوع لا تلاميذ يسوع.

في هذا السياق أيضاً يندرج وعدّ زكريّا النبيّ المستعمل لدى الإنجيليّين في دخول يسوع إلى أورشليم : «ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا أورشليم هو ذا ملكك آتيا إليك برّاً مختلصاً وضيعاً راكباً على حمار وعلى جحش بن أتان (...) ويكلّم الأمم بالسّلام ويكون سلطانه من البحر إلى البحر وإلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض». 9، 9 - 10). الإشارة هنا واضحة إلى ارتباط العدل بالسّلام. ملك السّلام هو الصّورة المعاكسة لملوك العهد القديم الذين فرضوا السّلام بقوة السلاح كحكّام كلّ زمن. وما صعود المسيح على الحمار، الذي كان مطية الفقراء، عندما دخل أورشليم ملكاً إلاّ ثورة على المفهوم التقليديّ الذي يجعل الملوك تمتطي أحصنة قتاليّة.

من الثابت لدى الرسول بولس أنّ «ملكوت الله ليس أكلاً ولا شرباً، بل هو برّ وسلام وفرح في الروح القدس» (رومية 14، 17). والتعابير التي ترافق لفظ «السّلام» في الكتاب المقدّس كلّها تعابير إيجابيّة، نورد منها : المحبة والرحمة والحياة والشفاء والصّحة والبر والخير والسعادة والطمأنينة والأمان ... وهل هذه كلّها إلاّ من ثمار الروح التي عدّدها بولس في غير مكان، ومنها أيضاً «المحبة والفرح والسّلام والصبر واللطف وكرم الأخلاق والإيمان والوداعة والعفاف» (غلاطية 5، 2). من هنا ندرك

أنّ رسالة المسيحيّ في العالم هي في إحقاق السلام والعدل. بذلك يصير العالم مكان تجلّ حقيقيّ لله، يغدو ملكوتا.

بالنسبة إلى الرسول بولس، يرتبط السلام بالنعمة والفداء. لهذا يقرن بولس السلام بالنعمة في بدايات العديد من رسائله «النعمة لكم والسلام». أمّا ارتباط السلام بالفداء فتجلّى في قوله بأنّ المسيح حقّق السلام بدمه على الصليب «صالح الله كلّ الكائنات، سواء في الأرض أو في السموات، فهو الذي حقّق السلام بدم المسيح على الصليب» (كولوسّي 1، 20). من هنا، كلّ مؤمن ينال التبرير يحيا بسلام مع الله : «فإذا قد برّرنا بالإيمان فلنا سلام مع الله ربّنا يسوع المسيح، الذي به حصلّ لنا الدخول إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ومفتخرون في رجاء مجد الله» (رومية 5، 1 - 2).

وتبعا للعهد القديم الذي يرى في حضور الله بين شعبه الخير الأسمى للسلام، يوضح الإنجيليّ يوحنا أنّ في حضور المسيح ينبوع السلام وجوهره. وهذه هي إحدى مميّزات إنجيله، أنّه عندما يحزن التلاميذ بسبب قرب فراق معلّمهم عنهم، يسكنّ يسوع روعهم : «السلام استودعكم وسلامي أمنحكم» (يوحنا 14، 27). لم يعد هذا السلام مرتبطا بحضوره على الأرض بل يتعلّق بانتصاره على الموت. ولذا، بعد قيامه، يعطي المسيح التلاميذ، مع سلامه، الرّوح القدس وسلطة غفران الخطايا (20، 19 - 23).

السلام والمقاومة :

إنّ موضوع «المقاومة» يطرح على ضمير المؤمن المسيحيّ الذي أخذ على عاتقه تحقيق تعاليم السيّد المسيح في هذه الحياة أسئلة عدّة، وبخاصّة إذا لجأت هذه المقاومة إلى استعمال العنف. من هنا علينا أن نميّز بين

مقاومة في سبيل إحقاق العدالة ودرء الظلم والعدوان، ومقاومة لا هدف لا إلا الإرهاب والغايات الشخصية كمثل الوصول إلى الحكم أو استعباد البعض من الناس. ما يهمننا في هذا المقام هو النوع الأول من المقاومة العادلة والهادفة إلى خير الإنسان.

قبل الدخول في موضوع ارتباط تحقيق السلام بالمقاومة، لا بدّ من الإجابة على بعض الطروحات التي يثيرها موضوع المقاومة في المسيحية، أبرزها : ما المقصود بـ «محبة الأعداء» التي دعا إليها المسيح ؟ هل يجب التضحية بالعدالة في سبيل إحقاق السلام بأيّ ثمن، وتاليا ما هي العلاقة بين العدالة والسلام ؟ ما صحة المقولة أنّ المسيح قد دعا إلى ملكوت إلهي لا يتحقق إلا في الآخرة نافيا إمكانية عدم تحقيق هذا الملكوت على الأرض ؟ هل يجوز النضال المسلّح من أجل مكافحة الشرّ ؟

في الإجابة على هذه الأسئلة، سوف نحاول، قدر الإمكان، أن نستلهم تعاليم المسيح الإنجيليّة لتكوين رأي لا يخالف ما جاء به مؤسس المسيحية. ذلك أنّ السيّد المسيح لا يقدّم لنا شريعة جاهزة عن هذا الموضوع، من حيث أنّنا لا نجد في الأناجيل جوابا قاطعا يبرّر النضال والمقاومة أو يوجبه أو ينفيه ويحرّمه في السعي إلى إحقاق العدالة. لكنّ المسيح، في حياته، قد سلك دوما في سبيل كرامة الإنسان واحترام حرّيته وفي سبيل المحبة والسلام.

تحقيق الملكوت :

في الصلاة التي علّمها يسوع لتلاميذه والتي يتلوها المؤمن يوميا مرّات عدّة «أبانا الذي في السموات»، نجد دعوة إلى التزام شؤون الأرض وإحقاق العدالة والسلام لتحويل هذه الأرض إلى ملكوت سماويّ حقيقيّ. ففي هذه الصلاة يتوجّه المسيحيّ إلى ربّه قائلا : «ليأت ملكوتك، لتتكن

مشيئتكم كما في السماء كذلك على الأرض». تؤمن المسيحية بأن الملكوت الإلهي قد بدأ وهو حاضر «الآن وهنا»، لكنه سيعلم بقوة في اليوم الأخير عند المجيء الثاني للمسيح. إلا أن المسيحي لا ينتظر بسلبية هذا الملكوت، بل عليه تحقيقه الآن وهنا، من خلال التزامه تحقيق الخير والسلام والعدالة وإعمار الأرض وعدم تشويهها وتشويه الإنسان. أما تحقيق مشيئة الله في الكون فهو منوط بالإنسان الذي يلتزم تحقيق مشيئة الله من خلال إخضاع مشيئته لمشيئة الله بحيث تتطابق هاتان المشيئتان. وهل مشيئة الله سوى تحقيق السلام والعدالة والمحبة؟ العالم يتحول أكثر فأكثر ملكوتا كلما انضم إنسان جديد إلى الجهاد من أجل عالم أكثر عدلا وسلاما وحبًا. التحدي الذي يواجه المؤمنين دوماً يتمثل في قدرة الإنسان المتمتع بالحرية، على عدم انتظار اليوم الأخير للعيش في السعادة بل في جلب هذا الملكوت من اليوم الأخير إلى اليوم الحاضر.

محبة الأعداء :

يقول السيد المسيح : «أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضكم وصلّوا لأجل من يضطهدكم» (متى 5، 44). إنّ محبة الأعداء قيمة مسيحية بامتياز. فالله بحسب إنجيل متى (5، 45) «يطلع شمس على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والأئمة». والله، «الذي بذل ابنه الوحيد (السيد المسيح) لأنه أحبّ العالم الذي لم يكن يستحقّه، يعطي الأشرار فرصة ليتوبوا ويعودوا إلى الطبيعة الصالحة التي خلقهم عليها. من هنا، يقيم المسيح فرقاً ما بين الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله وبين أعماله. لقد كره المسيح الشرّ ولكنه بقي على حبه لكلّ الناس، أشراراً وصالحين، ولهذا مات من أجلهم جميعاً.

من هنا، لا تقوم محبة الأعداء، على تجاهل العدواة أو على إنكارها، بل هي دعوة إلى اعتبار العدو إنسانا قابلا للتوبة - إذا كان هو الخاطئ - فتكون مقاومة المؤمن له مقاومة للشرّ الذي فيه ورجاء في تحوّلِهِ إلى إنسان صالح يلتقي به في الإنسانية بعد زوال الشرّ منه. المحبة، إذا، تعني مقاومة الشرّ لأنّ عدوّ الحياة، وتاليا عدوّ الله. لذلك تفترض المحبة التصديّ للأشرار والظالمين والمعتدين حفاظا على الحياة التي انتمنا الله عليها.

ولنا في سلوك السيّد المسيح نموذج صارخ من حيث توفيقه بين محبة الأعداء من جهة ومكافحة الشرّ من جهة أخرى. فعندما صمم من أزعجتهم تعاليمه على قتله، ذهب هو في محبتهم إلى أقصى الحدود، فلم يرتض أن يعامل أعداءه كما كانوا مزعمين أن يعاملوه، إذ ظلّ منصرا على النضال ضدّ الذين كانوا يشوّهون صورة الله بتحقييرهم الإنسان باسمه. وقمة الموقف المسيحيّ بلغت على الصليب في قول المسيح : «يا أبت اغفر لهم لأنّهم لا يدركون ما يفعلون». هذه ذروة صراع يسوع ضدّ الشرّ دون أن يدع له أيّ مجال للتسرّب إليه، لأنّه استطاع التمييز حتّى اللحظة الأخيرة بين الإنسان وبين الشرّ الذي يرتكبه، وبقي حتّى النهاية موليا محبته ورجاءه لذلك الإنسان.

غير أنّ المسيح نفسه قد طرد التجار والصارفة من الهيكل بعد أن قلب موائدهم وكراسيهم قائلا لهم : «بيتي بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص» (متّى 21). ثمة من يتخذ هذه الحادثة لكي يبرّر عملا عنفيا يقوم به، متغافلا عن أنّ المسيح قد بلغ إلى الوداعة والصلاح مبلغا أضحى بموجبهما قادرا على استعمال العنف بمحبة كاملة. من كان عنده وداعة المسيح ومحبته يحقّ له، في بعض الظروف الموجبة، التصرف كما تصرف يسوع في الهيكل.

انطلاقاً من الموقف الثوريّ للسيد المسيح، يقول كوستي بندلي⁽³⁾ إنّ الموقف المسيحيّ من استخدام العنف لإحقاق العدالة هو موقف دائم التوتر، عليه التوفيق بشكل خلاق بين نقيضين تمليهما كلاهما المحبة :

فمن جهة لا يمكن أن نقبل بأن نترك إخوتنا فريسة للظلم، إذ أنّ المحبة تقيمنا مسؤولين عنهم : «إن كلّ ما لم تصنعوه إلى أحد هؤلاء الصغار، فإلّيّ لم تصنعوه» (متّى 25، 45). هذا ما نجده أيضاً في التراث المسيحيّ، فأمبروسيوس أسقف ميلانو (القرن الرابع) قال : «إنّ الذي لا يصدّ الظلم الذي يهدّد أخاه، في حين أنّه قادر على ذلك، لا يقلّ ذنباً عن الذي يقترب الظلم». ومن جهة أخرى، فكلّ مجازاة للظالم في موقفه العدوانيّ إنّما هي هزيمة للمحبة وإنكار لقوّة ملكوت الله الفاعلة منذ الآن في الأرض وتخليد لدوامة الشرّ وعناقه.

المسيحيّ، إذا، مدعوّ إلى التوفيق بين متناقضين : محبة المضطهدين التي تدفع إلى النضال من أجل العدالة ومحبة الأعداء التي تدعو إلى النّضال من أجل المصالحة والسلام. والتوفيق بينهما أمر عسير ومحفوف بالمخاطر. من هنا، إذا حدّدنا العنف على أنّه المقاومة المسلّحة للظالم، وجدنا أنّ المسيحيّين اليوم انطلاقاً من إخلاص واحد أكيد لكلمة الله، يعتمدون تارة النّضال العنفيّ وطورا النضال اللاعنفيّ من أجل إحقاق العدالة، وذلك وفقاً لما يتوفّر لكلّ منهم من قناعة شخصيّة على ضوء تحليله للأوضاع المحيطة به.

(3) لقد استعنا في كلامنا على النضال العنفيّ والنضال اللاعنفيّ لإحقاق العدالة على كتابي

الدكتور كوسي بندلي : نضال عنفيّ أو لا عنفيّ لإحقاق العدالة، منشورات النور،

بيروت، 1988، والمحبة والعدالة والعنف، مطبوعات الشرق الأوسط، بيروت، 1995.

وبخاصّة من الناحية اللاهوتيّة والأمثلة التي نوردها هنا في مقالنا

النضال العنفي لإحقاق العدالة :

إذا توصل المسيحيّ إلى القناعة بأنّ النضال العنفيّ هو السبيل الوحيد لإحقاق العدالة فلا بدّ له من التقيّد ببعض القواعد التي تبعد هذا النضال عن الانحراف عن خطّه الأصلي والوقوع في شهوة التدمير والقتل، وتاليا الابتعاد عن النوايا النقيّة التي دفعت إليه. أمّا أهمّ هذه القواعد فهي حصر العنف في هدف إزالة الظلم والقهر والعدوان، وبعد إزالتها الغفران والمصالحة والسلام.

على المسيحيّ أن يحرص أشدّ الحرص على أن لا يدع استعمال العنف يتعدّى هدف إزالة الشرّ إلى هدف التنكيل بالظالمين والمعتدين وإزالته من الوجود، أي أن لا يتركه يتخطّى إحقاق العدل إلى الانسياق وراء شهوة التدمير والقتل المجانيّ والعشويّ. هذا الحرص يعبر عنه نفسه بموقفين لا بدّ من ترجمتهما على الأرض، وهما احترام حياة الخصم إلى أبعد حدّ ممكن، واستبعاد كلّ عمل يقصد منه مجرد التشفي والانتقام.

لقد وفرت لنا الثورة الساندينية في نيكاراغوا مثلاً ساطعاً يذهب في هذا الاتجاه. إذ ألغت عقوبة الإعدام بعد انتصارها وهي السلاح الأمضى الذي كان متوفراً لديها لتصفية خصومها. وقد عبّر بشكل لافت عن هذا الموقف توماس بورخيه، أحد مؤسسي الجبهة الساندينية، عندما قال : «لقد صنعنا هذه الثورة لكي لا يكون في ما بعد في نيكاراغوا اغتيال أو تعذيب (...) إنّ الثورة النيكاراغوية لا تريد موت الخطأة، إنّها تريد موت الخطيئة (...) إنّ انتقامنا الأكبر سوف يكون الغفران». إنّ لقول مذهل إذا عرفنا أنّ هذا المناضل قد قضى العديد من سني حياته في السجن وعذب بوحشية مرّات عدة.

لا يجوز، إذًا، اعتماد العنف منهجًا والانسحاق وراءه دون قيد أو شر، ولو اقتضت ظروف التاريخ القاسية استعماله أحيانًا لردع الطغيان والظلم والعدوان. النضال اللاعنفيّ لإحقاق العدالة :

ليس المقصود بالنضال اللاعنفيّ أن يكتفي المرء بعدم استخدام العنف وأن يقف عند هذا الحدّ. هذا الموقف الأخير هو موقف الذين ينادون بالسلام مهما كان الثمن، حتّى على حساب العدالة. من هنا ضرورة التمييز بين مجرد «اللاعنف» (pacifisme) وبين النضال اللاعنفيّ الذي هو آخر بالكلية من حيث كونه نضاليًا.

لقد أثبت النضال اللاعنفيّ نجاحه في أماكن عديدة كالهند مع المهاتما غاندي، وفي الولايات المتحدة الأميركية مع القسّ مارتن لوثر كينغ. اللاعننف، عند غاندي، هو مقاومة، وتاليا هو نضال. فالمرء لا بدّ أن يقف في وجه المعتدي، وإلاّ فإنّه يكون قد دخل في لعبته وساهم في تحقيق مآربه الشريرة وخضع لعنفه عن بلادة أو جبن. ويكون، تاليا، قد فقد إنسانيّته وسمح للمعتدي بالتمادي في موقفه اللانسانيّ. وقد ميّز غاندي بين اللاعننف والجبن عندما روى الحادثة التالية : «إنّ سكان إحدى القرى قالوا لي إنّهم هربوا بينما كانت الشرطة (البريطانيّة المستعمرة) تنهب بيوتهم وتسيء معاملتهم ونسائهم وعندما أضافوا إنّهم إنّما تصرفوا على هذا المنوال لأنّي أوصيتهم بأن يكونوا لاعنفيّين، كنت خجلًا إلى حدّ أنّي طأطأت رأسي. وقد اضطررت أن أبرهن لهم أن ليس هذا هو معنى اللاعننف كما أفهمه (...) إنّ اللاعننف لا يقبل أن يهرب المرء من الخطر تاركًا ذويه بدون أيّة حماية. إلّا أن أفضل العنف على موقف ذاك الذي يهرب عن جبن».

أمّا مارتن لوثر كينغ، قائد الحملة ضدّ التمييز العنصريّ في بلده، فيقول : «هل ينبغي لنا أن نخلص إلى الاعتقاد بأنّ التمييز العنصريّ إنّما

هو من إرادة الله، فيقودنا ذلك إلى الرضوخ للقهر ؟ كلاً بالتأكيد. إلا ذلك إنما ذلك إنما يكون تجديفاً ننسب به إلى الله ما يأتي من الشيطان. إن التعاون السلبي مع نظام ظالم لم يجعل المظلوم مساوياً للظالم من حيث الشرّ.

هنا تجدر الإشارة إلى القول بأن المسيحية لا تؤمن بالجبرية التي تجعل الإنسان مستسلماً للقدر، وكأنّ الله هو المسؤول عن الظلم والقهر ولا حيلة للإنسان في مواجهة الأحداث التي تعترضه. بل، على العكس تماماً، تؤمن المسيحية بالحرية الكاملة للإنسان وبقدرته على الاختيار، بحيث يكون هو مسؤولاً عن كلّ ما يقوم به. فصورة الله ومثاله في الإنسان، مثلما ورد في التراث المسيحيّ، هما الحرية الشخصية والعقل اللذان يتمتع بهما الإنسان خلافاً لكلّ المخلوقات الأخرى. من هنا، كلّ مسّ بحرية الإنسان هو مسّ بصورة الله، وتالياً هو مسّ بالله.

السلم المبنيّ على الظلم هو سلام زائف، فالسلام الحق لا يمكن أن يُبنى إلا على العدل، وهو يمرّ لا محالة بالنضال من أجل إحقاقه. وفي هذا يقول المفكر الفرنسيّ روجيه غارودي : « ليس السلم غياب الحرب، إنه غياب الظلم وتسلّط الإنسان على الإنسان ». وقد ورد في هذا السياق، في كتاب حكمة يشوع بن سيراخ : « أيّ سلام يمكن أن يقوم بين الضبع والكلب ؟ وأيّ سلام ممكن بين الغني والفقير؟ إنّ حمير الوحش إنما هي طرائد الأسود في البرية، هكذا الفقراء هم فريسة الأغنياء ».

أمّا أهمّ وسائل النضال اللاعنفيّ فهي : رفض أيّ تعاون مع جيوش الاحتلال والمقاطعة الكاملة، مقاطعة السلع والخدمات، التوجّه إلى الرأي العامّ بالتظاهرات والمسيرات والعرائض والإضرابات والاحتجاج ورفض الضرائب والاعتصام، والعصيان المدنيّ. وقد أثبتت هذه الوسائل فاعليّتها في أماكن وأزمان شتى.

نضال عنفي أو لا عنفي ؟

يبدو، من وجهة نظر مسيحية، أنّ النضال اللاعنفيّ هو الصيغة الأمثل للمقاومة، ذلك أنّه يحقق الانسجام بين الهدف (أي السلام والعدالة والمحبة) والوسائل، فيستبق تحقيق الهدف عبر الوسائل عينها. مع ذلك، لا يجوز إضفاء صفة الإطلاق على النضال اللاعنفيّ بحيث ينتفى مبدئيًا وقطعيًا كلّ سبيل عنفيّ للنضال. فالنضال اللاعنفيّ مهّد من ناحيته بالتركيز على نوعيّة الوسائل بحيث تصبح هذه الوسائل بنظره غاية بحد ذاتها، فاعلة كانت أو غير فاعلة، فيقع في طهرية عاجزة يصدق فيها ما قيل عنها بأنّها، خوفًا من تلوّث يديها، ارتضت أن تكون بلا يدين.

إنّ الرفض المطلق للعنف كطريقة للنضال في سبيل إحقاق العدالة يتجاهل أنّ طبيعة الظروف والإمكانات المتوافرة قد تفرض اعتماد النضال العنفيّ كوسيلة واقعية وحيدة لإزاحة كابوس الظلم الذي يسحق النفوس والأجساد. اعتباره شرًّا لا بدّ منه لتلافي شرّ أعظم. إنّ قدرة شعب نيكاراغوا المسلّحة كانت شاهدة على اضطرار العديد من المسيحيّين إلى اعتماد نضال عنفيّ كانوا يأنفون منه لكنّهم خاضوه مكرهين لأنّهم لم يجدوا بديلا لإزالة طغيان ساحق، كما أنّ هذه الثورة بعينها كانت شاهدة على تمكّنهم من لجم العنف والحد من غلوائه.

إنّ الخيار بين الأساليب العنفيّة أو اللاعنفيّة للنضال لا يمكن أن يقوم على مجرد الموقف المبدئيّ، بل ينبغي أن يراعي ضرورات الواقع والسياق التاريخي. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ نضالا لا عنفيًا قد ينجح إذا ما أطلق في الوقت المناسب، أي إذا تصدّى لمواجهة العنف قبل أن يستفحل ويستعصي، لأنّه إذا استفحل واستعصى فقد لا يترك خيارا آخر لمواجهة سوى النضال المسلّح. هذا ما ينطبق مثلا على النازية التي كان يقتضي

التصدي لها بالأساليب اللاعنفيّة منذ أول تسلّمها الحكم عام 1933. أمّا بعد أن رسّخت أقدامها وقضت على جميع مناوئها فلم يبق من خيار آخر سوى التصدي لها بالسلاح.

وينطبق ذلك أيضا على الاغتصاب الصهيونيّ لأرض فلسطين، الذي ربّما كان بالإمكان أن يتمّ التصديّ الناجح له بالنضال اللاعنفيّ في بداياته عن طريق مقاومته ومقاومة الدولة البريطانيّة المساندة له بالمقاطعة الشاملة والعصيان المدنيّ. أمّا بعد أن رسّخ أقدامه وعمّق جذوره فقد أصبحت مقاومته بهذا الأسلوب مستحيلة.

المقاومة اللبنانيّة في الجنوب :

أمّا ما رأيناه في جنوب لبنان فهو نضال نموذجيّ لشعب حيّ ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ والغطرسة الصهيونيّة اللذين لم يعدما أيّ وسيلة لقهر شعبنا ولإذلاله. هذا النضال الجنوبيّ كان متعدّد الوسائل، فنجد أنّ البعض قد مارس النضال العنفيّ لدحر العدوان. أمّا البعض الآخر فقد مارس النضال اللاعنفيّ فالذي بقي صامدا في أرضه وبيته والذي رفض التعامل الاقتصاديّ مع العدوّ والذي عمل على دعم صمود الأهالي من خلال تأمين الموادّ والحاجيّات الأساسيّة، حتّى الذي رفض مجرد تحيّة جنود الاحتلال عند مروره على حواجزهم، كلّ هؤلاء لهم الفضل بالتحريض وإحقاق الحقّ والعدالة والسلام.

وما رأيناه من ممارسات، بعد التحرير، نجد فيه، ما عدا بعض الحوادث المتفرقة المحدودة كمّا وحجما، الكثير من روح التسامح والغفران والبعد عن روح التشفيّ والانتقام. وبما أنّ الشجرة تُعرف من ثمارها، على حدّ قول السيّد المسيح، فالمقاومة الجنوبيّة - التي ضمتّ مواطنين من خارج الجنوب أيضا - قد أثبتت أنّها إنّما تريد القضاء على العدوان والظلم

والقهر من خلال القضاء على الخطيئة والشرّ، وعودة الإنسان إلى العمل على تحقيق العدالة والسلام.

لقد عبّر المطران جورج خضر عن الموقف المسيحيّ من المقاومة عندما كتب في مقالاته الأسبوعية في صحيفة النهار (27 أيار 2000) : «هنا تستحقّ المقاومة ومن كان داعما لها شكرنا: كلّ الذين استدعاهم ربّهم فيها على مختلف فصائلهم وشرائعهم ما غدوا أبطال لبنان وحسب بل أبطال الكرامة الإنسانية لأنهم رفضوا ذلّ الإنسان والظلم والتعديّ وبذلوا حياتهم ذبيحة وشهادة لكلّ حقّ مهدور في العالم..»

أمّا بالنسبة إلى «العملاء» الذين ساندوا جيش الاحتلال الإسرائيليّ، فيدعو المطران خضر إلى «التشدّد مع الذين تعاملوا مع العدوّ وشاةّ وسلّموا أهلنا إلى السجون أو القتل وقرانا إلى التدمير»، ناهيا نحو فهم ضيقّ للعملاء، وطالبا التمييز بين المتعاملين ودرجات المسؤوليّة. وهو نفسه يرفض عفوا شاملا، كالذي حدث بعد الطائف، مضيفا أنّ «الاقتتال الداخليّ شيء والتحالف الصريح مع العدوّ شيء آخر».

ختاما، إنّ المعيار الأساسيّ لكلّ موقف مسيحيّ من المقاومة والنضال هو في مدي اقتراب أهدافها من تحقيق الملكوت السماويّ، أي ملكوت العدالة والسلام والمحبة. وإذا انتفى تحقيق أي من هذه الأركان الثلاثة يختلّ التوازن ويكون الموقف المسيحيّ، في هذه الحال، موقفا مساوما لا موقفا أصيلا. من هنا، حياة المسيحيّ هي مقاومة مستمرة طالما هناك إنسان مقهور في حريته أو في رزقه أو في طعام أولاده.